

الفصل السادس

بلاد المغرب

تمهيد — الخوض الغربي من البحر المتوسط

البحر الأبيض المتوسط يحد أوروبا من ناحية الجنوب وأفريقية من ناحية الشمال وبعض آسيا من ناحية الغرب . وليس معنى هذا أنه يعزل كل قارة عن الآخرين ، بل إنه على العكس جعل الصلة بين مصر والأناضول عن طريق البحر أقوى من الصلة بين مصر والشام عن طريق البر ؛ وعلى هذا النمط ربط الشعوب المحيطة به فآثر كل منها في حضارة الآخر بشتى الوسائل حتى لم يكن أن نقول بأن لهذا البحر حضارة مشتركة ، ذات صبغة خاصة تعاونت شعوبه في تشكيلها على الرغم من اختلاف العادات والأديان .

ودليل ذلك ظاهر في التاريخ ، فإن أوروبا بدأت باقتراض حضارتها من مصر وآسيا ، ثم انتشرت حضارة الاغريق في آسيا ومصر أيام دولة الاسكندر والدول التي قامت على أنقاضها مثل دولة البطلمة في مصر ، فلما أضاءت حضارة الإسلام كان هذا البحر واسطة لنقلها إلى أوروبا . وها نحن نراه يربطنا بمدينة أوروبا الحديثة بروابط تزيد على مر الأيام توثقا . ومن أجل ذلك يسعى كثير من ساسة العصر إلى إنشاء حلف يضم بلاد هذا البحر .

وينقسم البحر الأبيض المتوسط حوضين يهمنهما منهما الحوض الغربي ، وحدوده إجمالاً جبال الألب وجبال « بنائن » وجبال صقلية التي تغطس تحت الماء ثم تظهر في شبه جزيرة تونس ، ومن ثم جبال أطلس التي تمتد سلاسل متوازية تنتهى بالتقوس شمالاً في بلاد الريف . وكانت هذه الجبال قبل أن ينشأ مضيق جبل طارق تتصل اتصالاً مباشراً بجبال سييرا نيفادا في أسبانيا . وهذه بدورها تتصل بجبال جزر البليار والسلسلة الضيقة التي يخترقها نهر « إبرو » ، ثم تنخفض في خليج ليون إلى أن تظهر إلى الشرق من نهر الرون باسم مرتفعات بروكس التي تتصل بجبال الألب .

ومن هذا يتضح أن أوربا وأفريقية كانتا متصلتين . وما يزال الباب الذى يفصل بينهما بمقدار ٢٩ كيلومتراً — وهو مضيق جبل طارق — ذا عتبة هائلة ترتفع عن قاع المحيط الأطلسى بنحو ٣٥٠ متراً ، وهذه العتبة تمنع الماء البارد الذى بقاع المحيط من دخول البحر المتوسط ، فلا يدخل إليه إلا الماء السطحي وهو دافئ . يحدث تأثيراً حسناً في مناخ هذا البحر في فصل الشتاء . ولهذا الحوض الغربى باب آخر هو مضيق صقلية ويبلغ اتساعه ١٣١ كيلومتراً . ومن خصائص هذين البابين أن الدولة التي تسيطر على ضفة أحدهما لا بد أن تحاول الاستيلاء على الضفة الأخرى .

فأما مضيق جبل طارق فلعل الفينيقيين أول من فطن لأهميته ، وذلك في القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، فسارعوا إلى التحكم في ضفتيه ، وضمنوا بذلك استيراد القصدير من بريطانيا دون أن يهدد أحد خطوط مواصلاتهم . واستولى الرومان على أسبانيا نحو سنة ٢٠٤ ق . م . ثم أخذوا جزءاً من

بلاد المغرب في عهد أغسطس (سنة ٣٠ ق . م إلى سنة ١٤ م) وبلغ من شدة ارتباط الضفتين أن كانت ممتلكاتهم في أسبانيا وفي المغرب بمثابة مستعمرة واحدة .

ولما ملك القوط أسبانيا امتد نفوذهم إلى سبتة . ثم جاء المسلمون فملكوا الضفتين سنة ٧١١ م . وظهر الارتباط بينهما من جديد ، فكانت أسبانيا تابعة في الإدارة لبلاد المغرب ، بمعنى أن الضفتين كانتا تعدان ولاية واحدة . وبقيت الضفتان في أيدي المسلمين نحو ٨٠٠ سنة .

وها نحن نرى اهتمام أسبانيا بتوسيع نفوذها في الريف . وليس من شك في أنها ترنو إلى استعادة جبل طارق من يد بريطانيا ، بينما تبذل هذه جهد المستميت للاحتفاظ بهذه الصخرة ضماناً لمصالحها في الشرق .

وأما مضيق صقلية فقد ملكته قرطاجنة بالسيطرة على جزء من جزيرة صقلية . فلما كانت الحرب البونية الأولى نحو سنة ٢٦٠ ق . م . انتزعت روما صقلية من القرطاجنيين ، وجعلت من هذه الجزيرة قاعدة حربية للقضاء على قرطاجنة وتم لها ذلك سنة ١٤٦ ق . م .

ولم يمض ربع قرن على ذلك حتى أنشأت روما مستعمرة جديدة على أنقاض قرطاجنة ، نزع إليها كثير من الرومان وعمروها وبقيت مرتكزاً لقوتهم تدافع المسلمين زمناً طويلاً حتى اضطر حسان بن النعمان الغساني إلى تخريبها سنة ٨٣ هجرية — ٧٠٢ م . وأنشأ إلى جانبها مدينة تونس .

ولما استقر ملك المسلمين في أفريقية كان من أول أهدافهم امتلاك

صقلية ، وما برحوا يغزونها حتي امتلكوها على يد الأغلبة في نحو منتصف القرن الثالث الهجري .

فلما ملك النورمانديون صقلية بذلوا جهداً كبيراً للاستيلاء على الضفة الإفريقية ، ونجحوا في إمتلاك المهدية مدة ، ولما صارت صقلية إلى « شارل كان » « شارل الخامس » امبراطور ألمانيا وملك أسبانيا استولى على تونس سنة ١٥٣٥ م .

وما كادت إيطاليا تجمع شملها ، وتبعم باستقلالها حتي تطلعت الى تونس لولا أن سبقتها فرنسا عام ١٨٧٥ م ، على أن هذا لم يمنع تسرب العنصر الإيطالي الى تونس ، فبينما كان الفرنسيون فيها سنة ١٩٣٥ ، ٣٥ ألفاً ، إذا بالإيطاليين مائة ألف أكثرهم من أهل صقلية يعيشون جماعات متعاونة تحتفظ بلغتها وعاداتها ، ويكثر نسلها بشكل مخيف حتي أصبحت دولة في جوف دولة . ومطالب إيطاليا في تونس معروفة من قبل أن تقوم الحرب العالمية الثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٩ . ولعل من أسباب دخولها في جانب ألمانيا في تلك الحرب رغبتها في تملك تونس . ولوانتصر الجانب الذي انضمت إليه لكان من المرجح كثيراً استيلائها على تلك البلاد وطردها فرنسا منها .

بلاد المغرب

ومن أهم أجزاء الحوض الغربي للبحر المتوسط شمال أفريقيا الغربي ، وتحده الصحراء الكبرى من الشرق والجنوب ، ويحف به الماء من الشمال والغرب ، والساحل قليل المرافئ أكثر ما فيه فجوات هلالية الشكل

معرضة للرياح الشمالية التي تهب في الصيف ، وهو أكثر فصول السنة صلاحية للملاحة . ولا توجد إلا فجوات قليلة على شكل آ كياس تؤدي جوانبها شيئاً من الوقاية للسفن . وأهم هذه المرافئ تونس وبنزرت ونجاية ووهران .

والنتيجة أن شمال أفريقية الغربى يصعب التوغل فيه من ناحية البحر المتوسط . فلما أراد الغزاة الأقدمون التوغل فيه لم يجدوا من الساحل صدراً رحباً ، ثم عاقبتهم الغابات التي كانت تكثف فيه . لأن أشجارها وعشبها كانت تضيع معالم الدروب ، ولأن الأقدمين كانوا يرهبون ظلام الغابات ، حيث يتمكن السكان من التربص للمارة عامة ، وللغزاة خاصة .

وعاونت الصحراء كذلك في وقاية هذه البلاد من الغزو في الزمن القديم وبخاصة لأن الإبل لم تكن معروفة بها قبل ميلاد المسيح ، فلم يكن قطع الصحراء على ظهور الخيل بالأمر الهين فبقيت الصحراء تفصل بين السودان وبلاد المغرب حتى انبرى لها العرب ، وقد نبتوا في صحراء مثلها وثقفوا بثقافتها فذللوها لأول مرة في التاريخ ، وعبدوها للأغراض الحربية والاقتصادية ، بعد أن كان أهل السودان منعزلين عن بلاد المغرب لا يعرفون عنها شيئاً .

وفي داخل بلاد المغرب تمتد جبال أطلس من مضيق صقلية إلى المحيط الأطلسي ، وتنقسم من حيث التضاريس ثلاثة أقسام :

أولها الأطلس البحرية — وتعرف بالتل — وهي مجموعة سلاسل تحاذي الساحل ومنها شعبة الأطلس الصغرى المعروفة بجبال الريف . وهذه السلسلة

ترتفع من الساحل ارتفاعاً شاهقاً ولا تترك بينها وبين البحر المتوسط إلا سهلاً ساحلياً ضيقاً .

وثانيها الأطلس الصحراوي وتمتد في بلاد الجزائر الحالية وتنحدر انحداراً شديداً نحو الصحراء ، وتبعث بمجاري مائية قصيرة تغذي عدداً من الواحات . وبين التل والأطلس الصحراوي تقع هضبة الشطوط أو البحيرات الملحة وتعلو سطح البحر بنحو ٩٠٠ متر . وهي قليلة الأمطار ، ولهذا كان أكثرها مصراعى وانبنى على ذلك ارتباط أهلها ببدو الصحراء أكثر من ارتباطهم بأهل السهل الساحلي حيث الحرث والمدن .

وثالثها الأطلس الكبير وتمتد في المغرب الأقصى . ومنطقة الأطلس بأجمعها أكثر شجها بأوربا منها بأفريقية ، وفيها نشأت المستعمرات القديمة ، حيث فتحت الطبيعة أبواباً ، ومهدت ودياناً تسرب المستعمرون بواسطتها من الساحل إلى داخل البلاد . وأهم هذه الوديان مجردة وهو نهر تونس ، وشليف وسبو ، وأم الربيع وتنسفت والسوس . أما حيث لا توجد وديان فتتحصن التجارة والمستعمرات قرب الساحل . وأكبر مساحة زراعية توجد في تونس الحالية حيث قامت دولة قرطاجنة ، إذ كان المطر يكفي لإنبات القمح وغيره من الحبوب إلى جانب الزيتون والفاكهة .

وعند خليج قابس تندمج الجبال في هضبة أفريقية ، ويظهر سهل ساحلي عرضه لا يزيد على ٤٨ كيلومتراً ، كان وما يزال طريق الهجرة والحرب والتجارة والحج بين بلاد المغرب ومصر . وبواسطة هذا النطاق امتد حكم مصر أيام الفراعنة إلى خليج سدره ، وفيه سار الفرس في القرن السادس قبل الميلاد ، وسلكه العرب من مصر حين أرادوا فتح بلاد المغرب . أما ما يلي

هذا السهل الساحلى جنوباً فصحاء رملية لا تسهل فيها الحركة ولا سيما على الجماعات الكبيرة .

و بلاد المغرب تتمتع بمناخ البحر الأبيض المتوسط ، ومطره شتوى يوافق نمو الحبوب والغلل . وبسبب الارتفاع نجده معتدل الحرارة ، ويوجد الثلج على قمم بعض جباله طوال العام .

حال البربر قبيل الفتح الإسلامى

استقر البربر فى شمالى أفريقيا من عهد ما قبل التاريخ . وتسعة أعشارهم من الجنس الحامى نزحوا من الشرق عن طريق السهل الساحلى المجاور للبحر المتوسط ، و بقيتهم من الشقر يغلب أنهم جاءوا من شمال أوروبا عن طريق جبل طارق .

واختلط بالسكان الأصليين أناس من الفاتحين من فينيقيين وإغريق ورومان ووندال وقوط . ولكن تأثير هذه الأمم الغالبة كان ضعيفاً فى الجنس واللغة والتقاليد ، فقدبقى السواد الأعظم بربرياً واقتصر الأثر الأجنبى على السواحل ، كمابقى نظام القبائل سائداً فى داخل البلاد تطبق كل قبيلة عرفها وتقاليدها شأن قبائل العرب ، وكانوا يشبهون العرب كذلك فى حروبهم وجلدهم وتخشنهم ، وفى عبادة الأوثان والنجوم ، وقد اكتفى الرومان منهم بالجزية وتركوهم تحت حكم شيوخهم ، على أن نار الرغبة فى الاستقلال لم يخمداً أوارها .

ولما ضعف سلطان الروم برزت شخصية البربر ؛ فلما اعتنق بعضهم المسيحية على مذهب يخالف مذهب الحكومة تحولت الخلافات الدينية حرباً بين الأجناس كما كانت الحال بمصر بين الروم الملكانيين والمصريين اليعاقبة . وكانت الحكومة في المغرب تعاقب مخالفيها أشد العقاب ، وبلغ من ذلك أن أحد الأباطرة شلح ٣٠٠ أسقف وألوفاً من صغار القسوس ونفاهم ، وحرّم على العامة إقامة شعائر الدين كما حرّم المخالفين منهم حقوقهم المدنية . فكان هذا الاضطهاد الديني مذكياً لنار العداء الجنسي فكثر الثورات على الروم وتحرر كثير من البربر من نير الحكومة على حد قول ابن خلدون : « وصار لهم وراء الأمصار المرهوبة ما شاء الله من قوة وعدة وعدد ، وملوك ورؤساء لا يبالونهم الروم والفرنج بمسخطة ولا إساءة » .

على مثل هذه الحال كان البربر حين دخل العرب بلادهم فواجه العرب قبائل لا تقل عنهم بداعة وبأساً ، وتمتاز بلادها عن جزيرة العرب بجبالها الشاخنة ومسالكتها الوعرة وكثرة وديانها الحصينة ، مما يهيء للمدافعين عنها فرصاً كثيرة للإيقاع بالمغير ، حين تهب كل قبيلة للذود عن دمارها . وكان جمهور البربر قبائل بدوية يعيش أكثرها على الرعى في هضبة الشطوط وفي الأطلس الصحراوية والكبرى ؛ ومن باب أولى في الوديان الكثيرة التي تنحدر من هذه الجبال إلى الصحراء والتي تكثف فيها الواحات .

وبسبب ضيق السهل الساحلي الخصب وصعوبة الاتصال بين أجزاء البلاد لم تقم فيها دولة كبيرة تجمع شتاتها فترة طويلة من الزمن كما حدث في

مصر ، وإنما قامت فيها في أكثر حقب التاريخ ، دويلات صغيرة متنافسة شأنها في ذلك شأن بلاد اليونان حيث قامت المدن الحكومية المتفرقة قبل أن تخضع تلك البلاد للمقدونيين ثم للرومان .

وانبنى على هذا التشتت السياسى الذى أملىته طبيعة البلاد أن كان السهل الساحلى الحصيب مطمح أنظار المستعمرين في مختلف العصور . وكان بعضهم يتوغل إلى الداخل عن طريق وديان الأنهار . ولكن هذه الطبيعة بذاتها حين أطمعت المستعمرين في البلاد طوعت لأهلها وسائل المقاومة متى استطاعوا . فإذا عجزوا لجأوا إلى قنن الجبال وتحصنوا بالصحراء ، يتربصون بالعدو ، حتى إذا لاحت الفرصة خرجوا من كهوف الجبال ومخابئها العديدة مما يتمثل في جبل أوراس ، وهرعوا كذلك من جوف الصحراء وانقضوا على المدن وأهلكوا الحرث والنسل يريدون مطاردة الأجنبي .

ويهمنا من ضروب مقاومة البربر ما حدث أيام الفتح الإسلامى ، وملخصه أن العرب حين فتحوا مصر تحتم عليهم فتح برقة إذ كانت ملحقة بمصر بوصفها الدوقية الخامسة . فلما بلغ عمرو بن العاص إلى أطرابلس كتب إلى عمر : « أنا قد بلغنا أطرابلس وبينها وبين أفريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل » فرد عليه عمر : « ما هي بأفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها » ولعله أراد أن الجيوش التى تغزوها لا مناص لها من التفرق في أقسامها الطبيعية وأنها تغدر بالغازين في مكانها الكثيرة حين يخيل إليهم أنهم امتلكوها ، وإن هؤلاء الغازين يغدرون بها انتقاماً لأنفسهم .

ومصداق ذلك أن العرب فتحوا العراق والجزيرة وفارس والشام ومصر في
عشر سنين ، بينما استغرق إخضاع أفريقية ما يقرب من سبعين سنة . وأول من
حاول ذلك عبد الله بن سعد والى مصر فخار بها مرتين على غير جدوى . ثم
حاول ذلك معاوية بن حديج في عصر أمير المؤمنين معاوية فضاعت جهوده
أدراج الرياح .

وكان عقبة بن نافع الفهري قد قضى ربع قرن بالمغرب فرأى في غزوة قام
بها سنة ٥٠ هـ — ٦٧٠ م . أنه لا مقام للعرب بأفريقية ما دام قرب صقلية
يطوع لأسطول الروم استردادها من العرب . كما شاهد ذلك بنفسه أكثر من
مرة . وأعمل عقبة الفكر فبان له أن من أسباب تراجع العرب عن أفريقية
طول خط مواصلاتهم بينها وبين أقرب مرتكز لهم وهو القسطاط . فاستقر
رأيه على أن خير وسيلة للاستقرار بالمغرب إنما هي الاحتفاظ فيها بجيش دائم ،
وأن ذلك يستدعى إنشاء مدينة جديدة تكون مقر عسكر المسلمين وموطن
أهلهم وتحفظ فيها أموالهم .

فاختار لذلك موقعاً له ميزات عديدة من حيث الحرب والاقتصاد
والمواصلات وأنشأ فيه القيروان في رقعة تكفي مزارعها لتموين الحامية ومن
معها ، بعيدة عن الساحل بحيث لا ينالها الأسطول الرومي ، وفي مواجهة جبل
أوراس الذي كثيراً ما قاوم سكانه الغاتحين من قبل ، وعلى محجة القوافل
بحيث يستطيع الجيش العربي إذا اضطر أن يتجهز إلى فتنه ببرقة والقسطاط .
وقد أعجب كثير من الكتاب الأوروبيين بحسن بصر عقبة بالأستراتيجية

فقال أحد الفرنسيين : « لا ريب أنه في غضون عشر السنين الأولى من الفتح العربى كانت أهم المعارك تدور حول أوراس ، كما كانت الحال فى القرن السابق على الفتح أيام حكم الروم فى افريقية » .

ومن هذا المرتكز الجديد اخترق عقبة بلاد المغرب (نحو سنة ٦٢ هـ سنة ٦٨٢ م) إلى ساحل الأطلنطى ودخل فى الاسلام أناس من البربر منهم كسيله ابن الأعز الأورى ، ولكنه على الرغم من اسلامه ساءه أن يستصغر العرب قومه فاتهم وجود عقبة فى قلة من الجند وأثار عليه البربر وجماعة من الروم وانقض عليه فى تهوده على نهر الزاب فاستشهد عقبة وجميع رجاله . وما يزال ضريح عقبة إلى اليوم مزاراً لألوف مؤلفة من جميع نواحي المغرب .

وحكم كسيلا أفريقية خمس سنين ، ومكن له فيها خلاف بنى أمية وابن الزبير . فلما قتل عبد الله ، أرسل عبد الملك فى سنة ٧٦ هـ سنة ٦٩٥ م جيشاً لم تر أفريقية أكثر منه وجعل قيادته إلى حسان بن النعمان الغسانى فرأى هذا أن اطمئنان العرب هنالك يستدعى القضاء على الحامية الرومية فى قرطاجنة وتخريب ذلك الثعر . ونفذ عزمه بمساعدة أسطول اسلامى .

وبعد تخريب قرطاجنة رأى حسان أن ينشئ ثغراً على البحر المتوسط يدفع الروم إذا حاولوا تعمير قرطاجنة ، واختار لذلك مكاناً إلى الجنوب من قرطاجنة به بحيرة ضحلة تبعد عن الساحل بستة كيلومترات ونصف كيلومتر ، وحفر حسان فى البرزخ الذى يفصل البحيرة عن الساحل قناة عميقة تسير فيها

السفن . ثم حفر من البحيرة قناة قليلة العمق لا تصل فيها الى تونس إلا الزوارق الصغيرة . وبذلك نشأت تونس ثغراً بعيداً عن الساحل بحيث يطمئن العرب إلى سكناه غير حاسبين لإغارات الروم حساباً ، وتحميه البحيرة من أمواج البحر ويمكن الإغارة منه على صقلية وغيرها من بلاد الروم .

وإلى جانب هذا ، طلب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك الإذن بإنشاء « دار صناعة » لبناء أسطول عربي ، فبعث إليه عبد الملك بألف من صناع مصر الحاذقين في صناعة السفن أنشأوا دار صناعة في تونس . واستقر هؤلاء المصريون هنالك بأهلهم وولدهم وأشاعوا في الثغر الجديد روحاً صناعياً بحرياً جعل تونس المنفذ البحري إلى صقلية وسردانية وإيطاليا .

غير أن البربر رغم اسلام كثير منهم ، ورغم قضاء حسان على كسيلة الأوربي ، ظهر من بينهم زعيمة يهودية عرفت بالكاهنة إنقادت لها قبيلة جراويّة المقيمة حول جبل أوراس وهو من أمنع جبال المغرب إن لم يكن أمنعها جميعاً . وتعلبت الكاهنة على حسان وطارده الى برقة .

ولما كانت الكاهنة وقومها بدوا لا يقيمون المدن وزناً قالت لهم : « إنما يطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من ذهب وفضة ؛ ونحن إنما نريد المزارع والمراعي . فالرأي أن نخرب هذه المدن والحصون ونقطع أطباع العرب منها » . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « كانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً ، فخربت الكاهنة ديار المغرب ، وجاست بالفساد خلاله . فشق ذلك على البربر ، واستأمنوا إلى حسان فأمنهم » ومعنى

ذلك أن تفرق أهل المغرب قبائل متجاسدة ، حمل فريقا منهم — وهم أهل الحضر على الأكثر — على مناوأة الكاهنة ، فاستطاع حسان أن يقضى عليها سنة ٨١ هـ قرب جبل أوراس . لكن حسانا مع ذلك كان قد تعلم من الحوادث السابقة أنه لا سبيل إلى إخضاع البربر بالقوة وحدها ، فعمد إلى استرضائهم عامة بأن جعل منهم ١٢٠٠٠ يلازمونه في القتال ، وسوى بينهم وبين العرب في الحقوق والواجبات . واستمال أعوان الكاهنة بنوع خاص بأن عقد لأكبر أبناءها على جراوة وجبل أوراس .

وبعد هذا كله ، خرج كثير من البربر على العرب فاضطر موسى بن نصير في نحو سنة ٨٩ هـ أن يقاتلهم في تامسان . فلما انتصر عليهم استأنف استرضاءهم ، فولى طارق بن زياد على طنجة ، وتوسع في إدماج البربر في جيشه وخصص جزءاً كبيراً من المال الذي كان يبعث به إليه أمير المؤمنين فكان يشتري بذلك الجزء من يتوسم فيهم الهداية من أسرى البربر . فإذا أظهروا استعداداً ومواهب أعتقهم في الحال وعينهم في مراتب هامة في الجيش . ومن الوسائل التي لجأ إليها موسى لكسب رضاء البربر إختياره جماعة من ثقات القراء والفقهاء لنشر الإسلام بينهم .

ومن ذلك الوقت صارت بلاد المغرب الجناح الأيسر لقوات الإسلام . وفي وصف هذا الانقلاب يقول مؤرخ فرنسي : « هذه نتيجة تستحق الإعجاب إذ أنه قلما يحدثنا التاريخ عن استعمار على وجه الكرة الأرضية وفق إلى مثل هذا النجاح » . ويقول مؤرخ آخر من غير المسلمين : « الحق أن تأثير

الفاحين الأقدمين كان مقصوراً على النطاق الضيق الخصب المجاور للساحل ، وكان من هذا التأثير أن سكان هذا النطاق وحدهم اعتنقوا المسيحية أيام الرومان والبيزنطيين ، أما فيما عدا ذلك فإن السكان لم يتأثروا تأثراً عميقاً بالحضارة الرومانية — مثلاً — لأن الرومان والبيزنطيين كانوا يعيشون غالباً في المدن الساحلية .

أما صبح جموع البربر بصبغة عربية وتحويلهم إلى عقيدة الإسلام ، وتجنيد جند منهم يتسابقون في مضمار الفتوح ؛ فذلك معجزة الإسلام التي مكنت له من إنشاء وطن جديد استعان به في ارتقاء سلم الزعامة العالمية .»

وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، فأرسل إلى المغرب عالماً زاهداً هو اسماعيل بن عبيد الله الحزومي والياً على الحرب والخراج والصدقات ، وبعث معه بعشرة من الفقهاء على غرارهم فتضافروا وإياه على نشر الإسلام في تلك البلاد فاتسعت دائرته اتساعاً عظيماً .

ورسخت قدم الإسلام في المغرب نهائياً بقيام دول مغربية إسلامية ، تولت الحكم في نواحي البلاد المختلفة . وعملت على نشر الدين وتطهيره مما علق به من الخرافات وآثار الجهل . وبذلك امتزج الدين والقومية امتزاجاً تاماً بحيث لم يعد يمكن فصل أحدهما عن الآخر . ومن أهم تلك الدول المغربية المرابطون والموحدون .

وإنما تعددت الدول في بلاد المغرب وكثرت فيها الثورات ، بحكم

جغرافيتها وبحكم إباء أهلها الاستكانة إلى السيطرة الأجنبية ، كما شاهدنا ذلك في مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري لفرنسا ، ومقاومة أهل ليبيا للغزو الإيطالي ، ومقاومة الأمير عبد الكريم الخطابي للاستعمار الأسباني .

والمنظور — بناء على ما تقدم — أن تخف وطأة الاستعمار الأجنبي في تلك البلاد الشقيقة ؛ وأن ينتهى أمرها بقيام دول قومية في أجزائها المختلفة .

أما اجتماعها من حدود ليبيا إلى المحيط الأطلسى في دولة موحدة ، ولمدة طويلة ، فيكون من قبيل الإستثناء ، لا من أثر البيئة الجغرافية .
